المحاضرة 12: تونس وظروف الحرب العالمية الثانية 1939-1945

شكلت الح ع 2 منعرجا حاسما في مسار التاريخ الوطني التونسي بما أفرزته من تطورات سياسية داخلية وما أحدثته من تغيير في التوازنات الدولية، ورغم أن تونس لم تكن مسرحا للحرب في بدايتها حتى سنة 1942 إلا ان الاحداث كان لها أثر كبير في النشاط السياسي للحزب الدستوري وعلاقة السلطة الفرنسية بالشعب التونسي، ويمكن التعرف على مميزات الوضع وفق مراحل أبرزها:

أولا–المرحلة الأولى: 1939 – أفريل 1943 .

انتقل الدستويون بعد تطورات أزمة أفريل 1938 إلى النضال السري بتكوين دواوين سياسية سرية، كما استمرت قيادة نشاط الحزب الدستوري القديم في ممارسة نشاطها علنا عن طرق جريدته " الإدارة " إلى حدود 22 ماي 1940 تاريخ انقطاع الجريدة عن الصدور، وجاءت سنة 1940 التي عرفت هزيمة فرنسا عسكريا أمام ألمانيا واستسلامها وعقد الهدنة في جمادى الأولى 1359هـ/ يونيو 1940م، واستبشر التونسيون بها وعاد أهل العاصمة وقد قرّوا عينا بالهزيمة الفرنسية وما نتج عنها من تنقيص الجيش الفرنسي ورجوع المجنّدين،واستقرّت بتونس لجنتان ألمانية وإيطالية لمراقبة تطبيق شروط الهدنة [1]،لكن حالة الذعر ازدادت بعد أن اتبعت فرنسا سياسة قمع الحريات وتعقّب الوطنيين واعتقالهم، وتجلّى ذلك من خلال مثول أعضاء الديوان السياسي الخامس :– الباهي الأدغم ، الهادي خفشة ،...في 14 فيفري 1940 أمام المحكمة العسكرية بتهمة التآمر على أمن الدولة، واعتقال حوالي 11 مناضلا من لجنة المقاومة في جويلية 1940 بتهمة التخريب وتوجيه رسائل إلى إذاعات أجنبية[2].

عرفت هذه المرحلة تكوين الديوان السياسي السادس تحت قيادة الدكتور الحبيب ثامر في فيفري 1940،وضمّ الديوان الطيب سليم ورشيد وإدريس، واستمرت في نشاطها النضالي، وقد تقدم وفد برئاسة الدكتور الحبيب ثامر بعريضة إلى البلاط في 20 جوان 1940 يطالب فيها حكومة الباي بإعلان سقوط الحماية وإطلاق سراح المعتقين في فرنسا، غير أنّ سلطة الحماية اعتقلت الدكتور الحبيب ثامر والطيب سليم في 21 جانفي 1941 أثناء محاولتهما اجتياز الحدود التونسية الطرابلسية[3]، وفي السّجن تلقى الحبيب ثامر من بورقيبة رسالة من حصن " سان نيكولا " يحثه فيها على التعاون مع الحلفاء مشككا في قدرات القوات الألمانية والإيطالية على الإنتصار، وبعد اعتقال أعضاء الديوان السادس تم تأسيس الديوان السياسي السابع جانفي 1941 وتواصل نشاط هذا الديوان إلى حدود أكتوبر 1941 تاريخ اعتقاله.

ولم يعرف نشاط الدستوريين القدامى توهجا بزعامة الثعالبي ولعل ذلك راجع الى موقف الثعالبي من حتمية هزيمة ألمانيا في هذه الحرب خاصة وأنّ أغلب الشعب التونسي كانت آماله معلقة على انتصار الألمان في الحرب إضافة إلى موقفه السابق من أحداث أفريل 1938، كما عرفت المرحلة نشاط الطلبة الزيتونيون

[1] . الفاضل بن عاشور، المصدر السابق،ص 244.

[2] . عبد المجيد كريّم وآخرون، موجز الحركة الوطنية،ص 108.

[3] . الحبيب ثامر، هذه تونس، ص100.

بتوزيعهم للمناشير المحرّضة على المظاهرات والإضرابات وتأسيس صحف غير معترف بها، وتعرّضهم للقمع الإستعماري وسجن بعضهم، والبعض الآخر أبعد إلى الجنوب[1].

كما اتخذت السلطة الفرنسية جملة من الإحتياطات، من جملتها أنها فرضت على السكان حراسة أعمدة التلفون في جميع أنحاء القطر، وجعلت كل فرد مسؤولا عن عشرة أعمدة، بالمقابل ظهرت حركة عصيان بين العناصر التونسية التي جنّدتها فرنسا إجباريا، وحاولت فرنسا الجمع بين أسلوبين في التعامل الترغيب والحلية وتارة بالقوة لحملهم على ركوب البواخر التي كانت تنقلهم إلى ميادين القتال في فرنسا وبلجيكا، وانتشرت حركة العصيان بين الجنود التونسيين المرابطين في تونس وبخاصة في القيروان وقابس وجردت الجنود من الأسلحة وقضت على هذا التمرّد بقوة [2].

-منصف باي ودوره في الحركة الوطنية التونسية : في 19 جوان1942 اعتلى عرش تونس محمد المنصف باي[3] ، وكان بايا مثقفا تميّز بمناصرته للحزب الدستوري واكتسب شعبية كبيرة نتيجة إبطاله بعض التقاليد والتشريفات في البلاط الملكي،حيث قدّم عريضة إلى حكومة فيشي في 04 أوت 1942 طالب فيها: باحترام السيادة التونسية –تأسيس مجلس استشاري تشريعي يمثل فيه التونسيون عددا كبيرا – تمكين التونسيين من جميع الوظائف العمومية – التساوي في المرتبات والأجور– التعليم الإجباري لكل التونسيين – إرجاع المراقبين المدنيين إلى دورهم الأصلي – مراجعة الإدارة المركزية وتنظيمها وفق النمط التونسي[4].

كما نشط المجال الصحفي خلال هذه الفترة مع صدور جريدة " إفريقيا الفتاة " في 1–02 جانفي 1943 بترخيص من الألمان التي واصلت رسالة "تونس الفتاة " حيث تضمن عددها صورة منصف باي،كما كانت تسعى لتغطية نشاط جمعية الشبان المسلمين، وصدرت منها عدّة أعداد حتى وصلت إلى 91 عدد كان آخرها بتاريخ 4 ماي 1943 ، وخلفتها جريدة " الشباب " بتاريخ 23 فيفري 1943 التي أشارت في أحد أعدادها إلى هدف الإستقلال[5].

وفي هذه الفترة تحولت تونس إلى مجال للحرب العالمية الثانية ومعارك طاحنة بين الحلفاء وقوات المحور من 09 نوفمبر 1942– إلى 12 ماي 1943، فتمتع التونسيون والباي والحركة الوطنية بحريّة رأت الجماهير بأنّ فضلها يرجع إلى حسن نية المحور إزاءها، وخلال هذه الفترة أعلن الباي حياده وكان يسعى إلى تأكيد إرادته الملكية من خلال تشكيل وزارة قومية تونسية يرأسها محمد الشفيق بمساعدة الماطري والصالح فرحات في 13

---

[1] .خليفة الشاطر وآخرون، تونس عبر التاريخ،ص 114.

[2] . الحبيب ثامر، المصدر السابق،ص 99.

[3] .هو ابن محمد الناصر باي زاول تعليمه الثانوي بالمعهد الصادقي، وكان صديقا لعدد كبير من الزعماء الدستوريين الذين يقاسمهم وجهة نظرهم، وكانت له رغبة في العمل على أن يكون "باي الدستوريين" للتفاصيل أنظر عنه: القصاب: المرجع السابق،ص 571.

[4] . أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير،ص 119.

[5] . البكوش، المرجع السابق،ص 108.

ديسمبر 1942، وأبدى نية في التعامل مع الإقامة العامةحيث انتزعوا تدابير منها الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين[1]، وإلغاء أمر 30 جانفي 1898 المتعلق بامتلاك الأحباس بطريقة المعاوضة العقارية أو المالية[2].

-**نشاط الدستوريين:** عرف الحزب الدستوري تراجعا في نشاطه خلال المراحل الأولى من الحرب واقتصر على العمل السري من طرف شخصيات مثل: الباهي الأدغم والحبيب ثامر، وبعض اللوائح والعرائض التي وجهوها إلى الباي منها: العريضة التي تقدم بها وفد برئاسة الحبيب ثامر إلى البلاط يطالب فيها حكومة الباي بإعلان سقوط الحماية وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين،وعرائض أخرى إلى السلطات التونسية المحلية، وكذا المنشورات السرية، وأعمال التخريب باستهداف سور ثكنة القصبة 25 أكتوبر 1939، وحوادث قصر الهلال مما أدّى إلى اعتقال مئات من الوطنيين [3].

كما تركزت مطالب الدستوريين في بداية الحرب حول الإفراج عن المعتقلين السياسيين،مع تصاعد الأسلوب القمعي الممارس من طرف سلطة الحماية[4] ضدّ النشطاء الدستوريين، وجميعها تشكلت في فترة اعتقال القادة الدستوريين لملءالفراغ السياسي للحزب، وكلما اعتقلت السلطات الفرنسية جماعة قامت مكانها أخرى في قيادة الحركة، وهكذا لم تنقطع حركة المقاومة ولاحوادث التخريب.

وكان لنزول جيوش المحور في تونس في شهر نوفمبر 1942 أثر في الإستفادة من فترة الحرية، خاصة وأنّ السجون كانت مكتظة بالوطنيين، فرأوا بأن الوقت مناسب للعودة إلى نشاطهم، وضرورة الإفراج عن المعتقلين في السجن بالقوة بعد أن تبينوا أنّ السلطة الفرنسية تسعى إلى تدبير مؤامرة لنقلهم وراء خطوط القتال فقاموا بثورة داخل السجن وتمكنوا من فتح أبوابه إلا أنّ المرابطين أمام باب السجن حالوا بينهم وبين ذلك بالقوة، وكانت هذه الحادثة سببا في إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين في كافة السجون بتونس في ديسمبر 1942[5]، وكانت روح التضامن قوية بين الناس وتكونت جمعيات إسعاف تولت مساعدة المنكوبين جراء الحرب،وتأسست لجان تابعة لجمعية الهلال الأحمر في كل مكان، وكانت ميول الجماهير إلى دول المحور خاصة الألمان؛ مثل ماحدث في الحرب العالمية الأولى، بالرغم من التحذيرات الموجهة من طرف بورقيبة من السجن لتعاطفه مع الديمقراطيين وتقديره لميزان القوى، وكان بعض الشباب المنضوين حول جريدة "الشعب" يعلنون بكل وضوح صداقتهم للألمان وعدائهم للفرنسيين، في حين أنّ الأغلبية كانت متحفظة، وكان بورقيبة أكثر تحفظا من المحور وميلا للحلفاء فقد أطلق الألمان سراحه وناشده الإيطاليون أن يدخل في زمرتهم، فقد حذر في رسالة

---

[1] . الذين استأنفوا نشاطهم السياسي داخل السجن وقاموا بالثورة داخل السجن تحت قيادة الدكتور الحبيب ثامر وسقط منهم عدد من الشهداء والجرحى مما جعل السلطات الإستعمارية تطلق سراحهم في 01 ديسمبر 1942، البهلوان، المصدر السابق،ص 95.

[2]. أندري جوليان، المرجع السابق،ص120.

[3] .الحبيب ثامر، المصدر السابق، ص100.

[4]. تشكل في أفريل 1938 ترأسه الباهي الأدغم قصد إعادة بناء شُعب وخلايا الحزب التي حلتها السلطات الإستعمارية وبهدف تنظيم عمليات مساعدة لعائلات الموقوفين وضمان الدفاع عن المعتقلين: زهير الذوادي، المرجع السابق، ص 172.

[5] . الحبيب ثامر، المصدر السابق،ص 101.

وجهها إلى الدكتور الحبيب ثامر في 08 أوت 1942 من الإنسياق وراء الدعاية النازية داعيا إياه إلى الإتصال بأنصار ديغول[1].

وبعد نقل السجناء السياسيين إلى إيطاليا من قبل دول المحور،حاولت إيطاليا الدخول في مفاوضات سياسية مع الحبيب بورقيبة لكنها باءت بالفشل أمام الموقف المتصلب الذي أبداه بورقيبة، هذا الموقف الذي كان سببا في تأخير رجوعه الى تونس، وأثناء تواجده بروما قام بتحرير مذكرة إلى الحكومة الإيطالية متضمنة شرط الإعتراف بالإستقلال التام وفتح مفاوضات مع دول المحور، وفي 06 أفريل 1943 تكلم في إذاعة روما ولمح إلى الإعتداءات الفرنسية وحذر التونسيين من المطامع الأجنبية ودعا إلى توحيد الصفوف حول العرش[2]، ولم يسمح له بمغادرة روما إلا بعد تدخل منصف باي وضغط الشعب التونسي وتظاهره أمام المفوضية الإيطالية، وكان رجوعه ورفقاؤه في 09 أفريل 1943[3].

ثانيا–المرحلة الثانية من : 7ماي 1943 إلى 16 أفريل 1945 :

لما دخل الحلفاء إلى العاصمة تونس في 7 ماي 1943 ضرب حصار جديد على الوطنيين، ورأوا ضرورة استمرارية العمل الدعائي في الخارج واستئناف نشاطهم في أروبا، وغادر مجموعة من الدستوريين تونس باتجاه برلين منهم: رشيد ادريس وحسين التريكي إلى برلين وتمكنوا من تأسيس مكتب المغرب العربي ببرلين في –21 جويلية 1943 وآخر بباريس وأصدروا صحيفة باللغة العربية والألمانية في برلين تحت عنوان " **المغرب العربي**" أشرف على إدارتها يوسف الرويسي، حيث تمكنوا من ربط علاقات مع شخصيات عربية مسلمة أمثال: المفتي الحاج أمين الحسيني والأمير شكيب أرسلان[4]، فقد حرص الوطنيون من خلالها على إبراز البعدين المغاربي والعربي، متضمنة قضايا التعاون والتضامن في مختلف البلدان العربية والمغاربية والتقوا هناك بقادة عرب من المشرق العربي من بينهم مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ورشيد علي الكيلاني في إطار النضال المشترك[5] .

وتعرّض المنصف باي إلى انتقام من طرف فرنسا،فرغم التزام تونس الحياد وإبلاغه ذلك رسيما لكلا الطرفين الحلفاء والمحور إلا أنه تعرض للعزل من منصبه واتهمته الإدراة الفرنسية بالتعاون مع المحور ومعارضتها له، ونقل إلى جنوب الجزائر (الأغواط)حيث اعتقل في 14 ماي 1943، ثم طلب منه بتاريخ 06 جويلية 1943 الإمضاء

---

[1] .خليفة الشاطر وآخرون،المرجع السابق، ص 115.

[2] . أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ص121.

[3] .الحبيب ثامر، هذه تونس،ص 103؛ Zmerli Sadok , , Espoire et déceptions en Tunisie 1942- 1943 . Maison Tunisienne de L'édition ,Tunis,1971 . p61.

[4] . بالنسبة للأمير الحسيني كان متواجد ببرلين، وشكيب أرسلان بجنيف: إدريس الرشيد: في طريق الجمهورية: مذكرات، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2001.

[5] . الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية،ص 212.

على وثيقة التنازل عن العرش، وتم نقله إلى " تنس" بشمال الجزائر وبعدها إلى مدينة " بو" بفرنسا في 17 أكتوبر 1945[1].

كما شهدت هذه الفترة رغم ما ميّزها من غموض عودة نشاط الحزب الشيوعي التونسي ونشاطه الدعائي، وظهور "**الحركة المنصفية** " والتي تدعوا إلى عودة المنصف باي بتنظيمها لإضرابات منها إضرابات طلبة الزيتونة وأساتذة الجامع الأعظم عن التدريس في نوفمبر 1943، كما برز نشاط جمعية الشبان المسلمين " التي استطاعت أن تكسب بسرعة تأييدا كبيرا في أوساط طلبة جامعة الزيتونة وأساتذتها الشاذلي بن القاضي والفاضل بن عاشور...، والذين أسسوا تنظيمين مع الجمعية المذكورة للدفاع عن فلسطين تحت اسم:" لجنة الدفاع عن فلسطين العربية "، وفرع المؤتمر الإسلامي بتونس لحماية القدس الشريف" [2]، أما الحزب الدستوري فقد شهد إعادة تنظيم شُعبه الحزبية ومظاهرات في الشوراع والإجتماعات الإخبارية والدورية، وإنشاء منظمة الشباب التونسي التي ضمّت آلاف التونسيين وإنشاء معسكرات تدريب لها[3].

أما الحبيب بورقيبة فقد اتّخذ موقفا مساعدا للحلفاء مما جعله يفلت من العقاب، وهذا ما بينته مقابلته مع الجنرال "مور" في 09 جوان 1943 مبرزا موقفه اتجاه الحلفاء ومحاولة إقناعهم بعدالة قضيتهم، ومع ذلك قامت السلطات الفرنسية بعملية قمع عسكرية ضد السكان، وتضييق الخناق على قادة الحركة الوطنية، وفي المقابل تمّ إطلاق سراح الدكتور الحبيب ثامر والطيب سليم وحسين التريكي ورشيد إدريس في 30 نوفمبر 1942 واستعاد الحزب مكانته بعد تولّي الحبيب ثامر في 11 جانفي 1943 إدارة جريدة "إفريقيا الفتاة " التي أصبحت تمثل لسان الحزب الدستوري الجديد، وتركزت اهتماماتها على الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية؛ أمّا الرشيد إدريس فقد أنشأ جريدة الشباب بمعية حسين الريكي وفريد بورقيبة، وتكونت إذاعة الوطن التي نادت بالتعاون مع ألمانيا لدحر الإستعمار الفرنسي وتحرير البلاد، ومع جلاء القوات الألمانية عن تونس قامت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني بمقتضى الأوامر الصادرة في 21 جوان 1943 و27 مارس 1944 بإعطاء الصبغة التونسية على الكاتب العام للحكومة التونسية والذي أصبح يعرف بـ "الكاتب العام للحكومة"، وقدم المقيم العام الجديد ماسط في فيفري 1945 إصلاحات لم تكن تناسب التطورات الجديدة وطموحات العمل السياسي والوطني التونسي حيث استحدث منصب وزير تونسي للشؤون الإجتماعية وإلغاء وزارة الأوقاف[4].

---

[1].محي الدين لقليبي، مأساة عرش، سلسلة من الحقائق التاريخية والوثائق السياسية، تقديم:مكتب الإستعلامات، اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري التونسي،تونس، 1367هـ/1947، ص13.

[2] .توفيق المدني،حياة كفاح، ج1،ص435.

[3]. الحبيب ثامر، هذه تونس، ص 163؛ Zmerli,62p, cit-op

[4]. القصاب، المرجع السابق،ص 601.

كما عرفت المرحلة تشكيل لجنة "مشتركة في 30 أكتوبر 1944 سميت بلجنة الستين تضم قيادات مختلف الفصائل الوطنية من الدستوريين والحركة المنصفية وأساتذة جامعة الزيتونة وممثلين عن الطائفة اليهودية، ومن مطالبها : الإستقلال الداخلي وإقامة نظام ملكي دستوري وأعلنت عن ذلك في 22 فيفري 1945 ضمن لائحة سميت "بيان الجبهة التونسية"[1]، كما حاولت القيادات الوطنية تعزيز نشاطها النضالي عبر قنوات كثيرة منها الشعب الدستورية والمناشير والجرائد، إضافة إلى النشاط الجمعوي مثل: جمعية الوداد الزيتوني التي ظهرت بتاريخ 21 مارس 1944بعد حصولهم على التأشيرة القانونية وسعي أصحابها إلى تنظيم مظاهرات لصالح الطلبة[2].

كما عرفت هذه المرحلة اتجاه التونسيين الدستوريين نحو تدويل القضية الوطنية ونقلها إلى المنابر الدولية وخاصة بعد ميلاد الجامعة العربية والأمم المتحدة، وقرّر الديوان السياسي إيفاد الحبيب بورقيبة إلى مصر في 26 مارس 1945 للتعريف بالقضية التونسية، وتدعيم التعاون العربي والمغاربي والدعوة إليه من خلال الكتابات الصحفية[3].

كما سعى الحزب الدستوري الجديد إلى مدّ قنوات الحوار بينه وبين السلطة الفرنسية، ومبادرات تقوم على محاولات الإقناع السياسية بضرورة التفاوض خاصة بعد انعقاد ندوة "برازافيل" جانفي 1944، التي اعترفت بحق الشعوب في تسيير شؤونها بنفسها ضمن اتحاد فرنسي يعوض الإمبرطورية، وعلى إثرها وجه الوطنيون مذكرة إلى الحكومة الفرنسية في مارس 1944 تتضمن رفض مشروع الإتحاد الفرنسي، ونجد أن الحزب الدستوري كثف من نشاطه مستفيدا من انتصار الحلفاء في 08 ماي 1945 عن طريق تحرير العرائض، ومظاهرات 08 ماي 1945 ؛إلاّ أنّ هذا لم يغير من السياسة الفرنسية الزجرية التي انتهجها المقيم العام الجنرال ماست(1943-1945) بالرقابة على الصحف وتشديد الخناق على الحريات العامة، كما حاولت الإدارة الاستعمارية القيام ببعض الإصلاحات بإنشاء وزارة تونسية للشؤون الإجتماعية، ومع ذلك فقد اعتبر الحزب الدستوري الإصلاحات محدودة وطالب بإلغاء الرقابة وإرساء الحريات العامة[4].

يبدو أن الحركة الوطنية في هذه الفترة واجهت صعوبات من طرف الإدارة الاستعمارية، والمتمثلة في الإعتقالات التي طالت الشخصيات السياسية الممثلة في قادة الحزب الدستوري ومنصف باي – والرقابة على النشاط الحزبي، وهذا ما جعل الحزب الدستوري يقوم بتدويل القضية لكسب تأييد عربي ودولي.

---

[1] . نور الدين الدقي، تونس من الأيالة إلى الجمهورية،ص 167.

[2] . البكوش، المرجع السابق،ص 109.

[3] .كانت رحلة بورقيبة خفية، وكابد صعوبات ومتاعب في طريقه ووصل القاهرة في 26 أفريل 1945: الحبيب ثامر، هذه تونس،ص 105.

[4]. خليفة الشاطر وآخرون، المرجع السابق،ص 117.